الفصل الرابع

صراع

طوال الطريق والتفكير يعصف بذهنه دون أن يجد له رادعاً.

أشباه الرجال من تلك العصبة كانوا يظهرون بين فينة وأخرى منذ بدأ الصراع في ٢٠١١؛ قتال وقتل، اغتيالات لأبرياء هنا وهناك، واشتباكات بينهم وبين الجنود من حين لآخر، بدا للجميع وكأنهم نفرٌ قليلون من السهل تدارك أمرهم؛ لكنهم اليوم يثبتون عكس توقعاتهم؛ ها هم قد ظهروا أمامهم فجأة وبقوة احتلوا بها كل أرجاء المدينة في ساعات، فكانت الصدمة قاتلة.

كيف سيكون الوضع بعد أن صار كل شيء مستباح أمامهم؟ وهل سيستمر طويلاً؟

لم يكن بباله أية إجابة أو حتى تكهنٌ بسيط بما سيحدث في المستقبل.

قطع حبل أفكاره حين لفت انتباهه مؤشر خزان الوقود بسيارته، إنه يوشك على النفاذ ولم ينتبه لذلك قبل خروجه، لن توصله الكمية المتبقية إلى البيت، فاتجه إلى أقرب محطة وقود من منزله لتتخذ سيارته دورها بين بقية السيارات المنتظرة على طول الشارع القريب الذي عج بها، المحطة لا تزال مغلقة ومعظم السيارات خالية من سائقيها، من الواضح أن أمر تزويدها بالوقود لن يكون قريباً مع هذا الوضع، نزل من سيارته وأكمل طريقه راجلاً ليعود أدراجه إلى البيت...حين دخل، وجد طارقاً جالساً على أريكة بالصالة والملل وقلق الانتظار باديان على وجهه، وحين رآه هب من مكانه منتظراً ما سيقوله، في تلك اللحظة أطلت عائشة من

غرفة ربُا وإمارات الخوف على وجهها وكأنما سمعت صوت فتحه للباب فأسرعت لتستقبله، وسألها:

-هل ما تزال رُبا نائمة؟

-نعم إنها غارقة في النوم، الحمد لله أنها هدأت منذ أن انقطعت أصوات الانفجارات.

تنفس في ارتياح وهو يقول:

-الحمد لله.

اقتربت منه وأمسكت بيده وهي تقول في رجاء وخوف:

-عبد الكريم، لنغادر المكلا.

سألها مندهشاً:

-لماذا تقولين هذا الآن؟

أجابته والخوف يربك كلماتها:

-اتصلت بي إحدى صديقاتي بعد مغادرتك بلحظات وهي تستعد للرحيل مع أسرتها، لقد أخبرتني بكل شيء، المدينة كلها محاصرة، لا نعلم ماذا سيحدث بعد ذلك، أرجوك، دعنا نذهب إلى مكان آمن.

-مكان آمن! هؤلاء بكل مكان.

-لكن مدينتنا هي هدفهم.

-كل شيء مستهدف بالمحافظة يا عائشة.

-لا، القرى أكثر أماناً من هنا، دعنا...

-لن أغادر.

قالها في حزم، ردت عليه في نبرة مرتجفة امتدت لجسدها ويدها الممسكة به:

-لِمْ؟ الوضع مخيف هنا، المدينة في أيديهم، أولئك سيتحكمون في مصيرنا وسيسيرون حياتنا، وربما ينوون قتلنا وتدمير مدينتنا كما يفعل (المتمردون) في عدن وغيرها.

رغم عدم تأييده لرأي زوجته ورغبته في البقاء إلا أنه في قرارة نفسه مُقر بصحة قولها، طالما أن الأرض قد صارت في يد من كان يسفك الدماء من قبل حين (كان) لها (حُماة)، فهل سيتورعون عن ذلك وقد خلا كل شيء لهم؟

هل يمكن لأبناء المدينة أن يقرروا دحرهم ومقاومتهم كمقاومي عدن؟ هل سيكون في مقدورهم مواجهتهم وفك أسر هذا الاحتلال؟ عندها فقط ستحدث حرب حقيقية وتتحول الأرض لساحة تغرق بالدماء لن يتكهن أحد بنتائجها.

صمت للحظات مفكراً والعيون ترقبه، ثم قال في هدوء:

-لن أغادر مدينتي وأترك بيتي لعبثهم، هذه أرضي وسأبقى بها حتى أموت.

أمسكت بيديه بقوة وهي تقول في رجاء:

-عبد الكريم، أرجوك، لا تفكر هكذا، دعنا نرحل.

-إن كنتِ مصرة على ذلك فسأستأجر لكم شقة في (غيل باوزير)، يمكنكم البقاء هناك والعودة متى ما سنحت الظروف، أما أنا فسأبقى هنا، لدي التزامات لا أستطيع تركها خلفي.

عادت تقول له في توسل ودموع الخوف تنهمر من عينيها:

-أية التزامات وفي هذا الوقت؟ المهم هي حياتك يا عبد الكريم، أنت سندنا وعزوتنا، لا أحد لنا غيرك.

-لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لذا سأحارب هؤلاء بطريقتي.

اتقدت نظراته حزماً وهو يقول ذلك، بينما ازدادت رعباً من قوله وملامحه، ورغم خوفها لم تجرؤ على جداله، فقال لها في رفق مطمئناً وهو يربت على يديها:

-في وسعي إخراجكم من المدينة، لا تقلقي.

أخذت تمسح دموعها وهي تقول محاولة استجماع رباطة جأشها:

-لن أغادر دونك، إما كلنا أو لا.

ابتسم في سرور لقولها، وقال لها:

-ويسعدني أن تكوني إلى جانبي يا عائشة، سننتظر وسنراقب ما سيحدث، أسأل الله أن يمر هذا الوضع بسلام.

هزت رأسها مؤيدة، ثم التفت لطارق فهز رأسه بدوره مؤيداً، وهو يقول وعلى وجهه ابتسامة صغيرة:

-كنتُ أتمنى أن تتخذ هذا القرار يا أبي؛ لكني حين رأيتُ خوف أمي لم أستطع البوح بما في نفسي، ولم أحاول إقناعها بأمر العدول عن الرحيل قبل قدومك.

هتفت به في ضيق:

-طارق! كنتُ أنتظر منك أن تقف في صفي وتقنع والدك.

رد في ثقة:

-أعتذر أمي، أنا لستُ خائفاً منهم، إنهم مجرد شرذمة سينتهي أمرهم خلال أيام، اطمئني.

تمتم عبد الكريم في نفسه:

-شرذمة! أنت تجهل الكثير يا ولدي.

ثم التفت لزوجته وقال:

-سأبقى في المنزل اليوم إلى وقت العصر، بعدها سأذهب للمؤسسة، سنرى كيف سأرتب أمورها بعد ذلك.

-أريد زيارة أصدقائي.

أجابه عبد الكريم حازماً:

-لن تغادر لوحدك يا طارق حتى تهدأ الأمور في الخارج؛ لكن في وسعك مرافقتي إن أردت ذلك.

قال في ضيق:

-لماذا يا أبي؟ أتنوي حبسي هنا؟ أصدقائي كلهم قد خرجوا مثلك ونقلوا لي كل ما حدث.

-قلت لن تغادر، كما أني سأستعير سيارتك منك، فسيارتي قد تركتها بالمحطة وسأحاول أن أتدبر وقوداً لها.

واتجه لغرفته وهو يشعر بهم كبير مما رأى، بينما التفتت عائشة لابنها وقالت:

-امتثل لأمر والدك يا طارق، لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث اليوم، أخشى أن ينفجر الناس فجأة.

رد عليها في استياء:

-ولكن رفاقي كلهم خرجوا من بيوتهم، لِم أنا؟

-ألا تفهم؟ إنه خائف عليك، لذا كن عاقلاً واجلس.

قالت كلمتها ثم اتجهت للمطبخ لتعد الغداء، بينما ألقى طارق بنفسه على الأريكة والغضب والضيق يتملكانه.

الأرض باتساعها تطبق على الأنفاس، الهواء النافذ للصدور اعتلاه دخانٌ أثار حشرجة الكدر.

تمنوا لو تبتلع الأرض أولئك الغزاة إلى باطنها، أو لتقيم لهم مساكن يطمئنوا فيها، أو تمنحهم الحياة أجنحة ليحلقوا بعيداً عن سطحها القاتم وصخب الظلم الذي قتل في الأرواح كل رغبة في الحياة، ومع ذلك ظل الصراع لأجلها.

هناك من حلق بأجنحة الواقع فاراً بنفسه، عله يجد الحرية والأمان، وإن كان كل من في الوطن سجين.

مع وقت العصر، قاد طارق سيارته وخرج برفقة أبيه وانطلقا في طريقهما إلى المؤسسة؛ الشوارع بدأت تدب فيها الحياة، الناس بدأوا يتحركون ليقضوا حوائجهم، حركة السيارات تعود بالتدريج لها رغم وقوف معظمها بالمحطات، المدينة تحاول أن تتنفس الحرية قليلاً رغم معالم الأسر؛ رجال العصبة على أبواب المؤسسات الحكومية التي سقطت في أيديهم، وفي نقاط التفتيش وأسئلتهم لا تنتهي ولا تتوقف.

عند النقطة قرب قصر الرئاسة، سأل أحد الملثمين طارق:

-إلى أين؟

رد عليه في حدة:

-أذهب إلى حيث أشاء ما شأ...

أمسك عبد الكريم بيده مهدئاً، وقال للملثم:

-زيارة بوسط المدينة.

عقد الملثم حاجبيه، وقال في حزم:

-حسناً، سأسمح لكما هذه المرة في المرور؛ لكن في المرة القادمة تعلما كيف تعاملان من يحاولون حمايتكم بأدب.

احتقن وجه طارق غضباً، وكاد يرد لولا أن عاد والده ليجذبه بقوة مرة أخرى وهدأ من غضبه، ثم مضيا في طريقهما، فقال لوالده:

-لم منعتني يا أبي؟ هؤلاء لا يجب أن نسكت على وقاحتهم، ماذا يعني بسؤاله إلى أين...

-هذا ما كنت أخشاه منك، أن تتصرف بطيش وعصبية، الوضع الآن بحاجة للهدوء والتفكير في كيفية الخروج منه والتعامل معه.

-كيفية الخروج منه؟! ألم تَرَ مسؤولينا وأصحاب الأمر كيف فروا وتركوا كل شيء وراءهم؟ فكيف سنخرج نحن من هذا الوضع؟ ألم تَرَ بنفسك يا أبي، أي مؤسسة تابعة للدولة سقطت في أيديهم، معظم الناس لم يستطيعوا مغادرة المدينة بعد نفاذ الوقود من كل محطاتها بسببهم، إنهم يرغموننا على البقاء، ويحاولون سجننا ليذلونا، هم الآن يظنون أنفسهم أسياداً علينا رغم أنهم نفر لا وزن لهم، كيف نهابهم؟

-أفهم جيدا ما تقوله يا ولدي؛ لكن الغضب والتهور لن يفيدانا في شيء، كن عاقلاً.

أطلق طارق زفيراً قوياً ثم قال:

-حاضر؛ ولكن أرجوك، اعدل عن قرارك ودعني أرى رفاقي.

-إلى الغد فقط إن شاء الله، دعنا نذهب إلى المؤسسة الآن، لابد أن ننهي بعض الأعمال.

-لا أريد البقاء في المؤسسة.

-إذن عد للبيت وإياك والرعونة والطيش، وعندما أنتهي سأتصل بك.

-حسناً.

امتعض وجهه وهو يهز رأسه؛ وامتثل لأمره وصحبه إلى حيث يريد، وفي طريق عودته، قال لنفسه في ضيق:

-الوقت لا يزال مبكراً، لِم لا ألتقي برفاقي؟

أسرع يخرج هاتفه من جيبه ويتصل، فأجابه ناصر وهو يقول:

-أهلاً طارق.

-أين أنت الآن يا ناصر؟

-أنا في مقهى قريب من منزلنا مع بقية الرفاق.

-حسناً، سآتي إليكم، وأخبر البقية بأننا سنقوم بجولة في المدينة، ولابد أيضاً أن نرى ما سنفعله الآن مع وجود هؤلاء المزعجون.

أجابه ضاحكاً:

-أخيراً سمح لك والدك؟

رد عليه ضاحكاً بدوره:

-لا، لم يسمح لي بعد، إنه خائف من هؤلاء لكني لستُ مثله، لن أسمح لأحد بأن يفرض أوامره علي.

-إن كان الأمر كذلك فمعه حق، يجب أن تكون حذراً، هؤلاء لا يخافون الله في أفعالهم، ألا يكفي ما رويته لك، والرعب الذي عشناه ليلة الأمس.

- دعك من هذا، أكمل لي حديثك عندما نلتقي.

- كلنا في انتظارك.

أغلق طارق الهاتف مبتسما وانطلق بسيارته في حماس نحو هدفه.

توالت ساعات العمل إلى قرب وقت أذان العشاء، وعبد الكريم لا يزال في مكتبه وبرفقته سهيل يحمل بعض الأوراق ويخبئها في الدولاب، ثم قال له عبد الكريم:

-هل غادر الجميع؟

أجابه في أسى:

-نعم، يعز عليَّ أن تبقى المؤسسة مغلقة.

-هي فترة مؤقتة حتى نرى كيف ستكون الأمور حولنا، ما دفعني للاجتماع هو وضع النازحين المستأجرين لدينا، المهم أي شكوى أو طلب لأي مستأجر أبلغني مباشرة.

-حاضر، الأمور مستتبة معهم إلى الآن ولن نستلم الإيجار إلا نهاية الشهر.

تنهد بعمق وهو يرد في ألم:

-مع وضعنا الحالي هذا لن تكون الأمور مستتبة أبداً.

-أسأل الله ألا تزيد الأمور تعقيداً عما هي عليه.

-أتمنى ذلك.

فجأة، دخل حارس المؤسسة عليهما وعلامات القلق على وجهه حتى أنه لم يستأذن في الدخول، نظر الاثنان نحوه في دهشة، فأسرع يتدارك خطأه وهو يقول مرتبكاً:

-معذرة سيدي، أحد رجال العصبة يود مقابلتك.

عقد حاجبيه وقال في حدة:

-ألم آمرك بإبقاء باب المؤسسة مغلقاً؟

-فعلت يا سيدي، حتى بعد مغادرة الموظفين؛ لكن أحدهم أسرع إليّ حين رآهم يغادرون وقد كنتُ على وشك إغلاقه، وطلب لقاءك وكأنه كان ينتظر لحظة فتح الباب.

-كان ينتظر ويستأذن ليقابلني! هل يمكن أن يكون واحداً منهم وهو بهذه اللباقة؟ من يكون؟

غزت الحيرة والقلق فكر الجميع، إلا أن عبد الكريم سمح للحارس بإدخاله، فامتثل لأمره، وما هي إلا لحظات حتى دخل شابٌ أكبر من طارق سناً، ذو بشرة بيضاء وبشارب قصير ولحية طويلة تدلت إلى أعلى صدره، ويرتدي الزي التقليدي الحضرمي؛ سترة طويلة الأكمام ذات لون أبيض، وفوطة وعمامة سوداوين عليهما بعض النقوش الملونة بألوان داكنة، وعلق على كتفه بندقية، وفي حزامه مسدس.

بدت الصدمة على وجه عبد الكريم واتسعت عيناه في ذهول وهو يقول:

-أنت... يحيى؟!

ابتسم يحيى وهو يقول:

-يبدو أنك لازلت تذكرني يا عم عبد الكريم.

رد عليه بلهجة فرح:

-كيف لا أذكرك يا ولدي ووالدك صديقي، وتزورنا دوما برفقته، وتلعب مع طارق في منزلنا حين كنتما لا تزالين صغيرين، كنتما كأخوين.

-نعم... كنا.

-أين كنت طوال الثلاث السنوات الماضية وتركت...

لم يكمل عبارته حين هدأ من اضطرابه ووصلت الإجابة إلى فكره سريعاً فتبدلت ملامح وجهه كلياً، قال يحيى في حزم:

-كنتُ أفعل ما أراه صواباً يا عم.

-هل الصواب أن...

أشار له بيده مقاطعاً ثم قال:

-لست هنا لتشرح لي شيئاً، أو تعيد كلمات أبي علي لتخبرني عما تراه مناسبا بالنسبة لك.

رد في حزم:

-لا أشرح لك وأنا أراك تختار الطريق الخطأ؟ تركت أهلك ودراستك الجامعية وطموحك في أن تكون ذا شأن لأجل أن تأتي غازياً اليوم؟

أجابه بثقة وزهو:

-أنا ذو شأن كبير لكنك تجهل ذلك.

رد ساخطاً:

-بين من؟ بين القتلة؟ جئت إلى هنا لتقتل أهلك وأبناء بلدك لتثبت مكانتك بينهم؟

هز رأسه في لا مبالاة وقال:

-أنا لن أقتل إلا من يستحق ذلك ومن سيقف في وجه الحق، نحن هنا ضد فساد السلطة.

-أهكذا يكون الحق؟ بالترهيب والغزو وبث الرعب في الأبرياء؟

-لا يهمني ما تقول، أنا هنا لأوجه لك نصيحة علها تثبت لك شيئاً من صدق كلامي.

عقد حاجبيه، وقال في حدة ونفاذ صبر:

-ما هي؟

-أخبر طارق أن يبتعد عن تجمعات رجالنا في نقاط التفتيش ولا يجادلهم، وينفذ أوامرهم وإلا فإنه سيكون مستهدفا.

رفع حاجبيه في دهشة وقال:

-طارق! وما علاقته بكم؟

-رأيته قبل ساعتين يراقب رفاقي لمدة، ويرمقهم بنظرات ساخطة، ويتحدث مع مجموعة منهم عند أحد النقاط بحدة، لولا أني عرفته وطلبت منهم أن يتركوا أمره لي لكانوا الآن يحومون حوله ليعرفوا كل شيء عنه، لذا إن أردت سلامته فدعه يفعل ما قلته لك.

ولم يبق يحيى بعد كلمته طويلا وغادره المكان، بينما صدم عبد الكريم لما سمع والتقط هاتفه في سرعة وخوف وثم اتصل بطارق، فأجابه:

-أهلا أبي، هل آتي إليك؟

صاح به في عصبية:

-أين أنت؟

-في البيت، ما الأمر؟

-متى عدت؟

ارتبك طارق؛ لكنه أسرع يقول:

-منذ أن أوصلتك.

-كاذب عنيد، ستسبب المشكلات لنا ولك، إياك أن تأتي إليَّ، سأطلب من سهيل أن يوصلني.

-ما الأمر أبي؟

-حين أعود ستعلم كل شيء.

وأغلق الخط، فقال سهيل مطمئنا:

-الحمد لله أنه بخير.

-طلبت منه أن يعود للبيت، لقد خالف أمري، لولا أن سيارتي دون وقود لما سمحتُ له بالخروج، إني في حاجة لها.

-في وسعي مساعدتك سيدي.

-كيف ذلك؟

-لدي جالون منه يمكن أن يفي بالغرض حتى تصل الناقلة للمحطة.

-شكراً لك، لننهي عملنا بسرعة يا سهيل ونعد لبيوتنا.

أنهى عبد الكريم كل أعماله وعاد لمنزله بسيارته، ولما دخل رأى عائشة جالسة بالصالة وحدها، استقبلته مرحبة، إلا أنه سألها على الفور بانفعال:

-أين طارق؟

مالت برأسها وسألته في حيرة:

-في غرفته، ما الأمر؟ ألم تتفق معه على أنه سيعود لاصطحابك من المؤسسة؟

-نعم، ولكنه أخل باتفاقنا.

واتجه نحو غرفته ولحقت به عائشة والتساؤلات تملأ فكرها وحين فتح الباب هتف في غضب:

-ما هذا الذي فعلته يا طارق؟

في تلك اللحظة كان طارق مستلقيا على سريره يعبث بهاتفه في سرور لم يقطعه إلا اقتحام والده، فأبعد السماعات عن أذنيه، وقال في ارتباك:

-ما الأمر أبي؟

-لا تتغابى، أين ذهبت بعد أن أوصلتني للمؤسسة؟ أخبرني الحقيقة.

بدت عائشة متفاجئة لقول زوجها، فقالت:

-ما بك يا عبد الكريم؟ ألم يكن من المفترض أن يبقَ معك بالمؤسسة؟

-نعم هذا في البداية، لكنه رفض، طلبت إليه أن يعود للبيت، ويبدو بأنه لم يستمع لكلامي، وقام بجولة في المدينة، هذا الأمر لم يكن يزعجني بل تهوره وطيشه في تعامله مع الغازيين.

-ماذا تعني؟

-حين كنت في المؤسسة قدم إليَّ يحيى ابن صديقي أشرف الذي اختفى منذ ثلاث سنوات تاركا أهله خلفه وهو يعمل معهم.

وأخذ يروي عليهما ما قاله يحيى، فازداد خوف عائشة وكذلك طارق.

حين يغرق القلب في العتمة، وتتيه معالم الطريق لن يكون للفكر أي خيار سوى الغرق معه، القلب هو نبراس الجسد الذي يقوده نحو طريقه؛ طريق العلم والكفاح والحياة، أو طريقٌ تفوح برائحة الدماء والموت.

قالت عائشة في ألم:

-يا إلهي، كان طالبا مجداً، والداه فخورين به، لقد حطم آمالهما، أمه لا تزال تبكيه وتحلم في أن تزوجه وترى أولاده.

قال عبد الكريم:

-للأسف، لم يعد يحيى الذي نعرفه، لقد تغير كثيرا.

ثم التفت لطارق وأضاف:

-قلت لك عاملهم بحذر، هل تظن بأنك ستصل لنتيجة بتصرفك ذاك؟ هل سيخافون منك؟ إلى أين ذهبت؟

صمت للحظات ثم أجاب:

-التقيت برفاقي ثم ذهبنا في جولة للمدينة، أنا آسف، كنت أشعر بالضيق لمجرد التفكير أن أولئك سيقيدون حياتنا.

-هم سيفعلون ذلك، ولن يتورعوا عن قتلك، لذا علينا أن نتمالك أنفسنا ونرى ما هو الحل الأنسب للخروج من هذا القيد وكيف نتعامل معه، لكني لا أضمن تصرفاتك بعد الآن، لذا ستبقى هنا ولن تخرج إلا برفقتي.

-لا يا أبي أرجوك، أعدك بأني لن أعيدها ثانية، أعدك أعدك أقسم لك.

تنهد بعمق ثم قال وهو يربت على كتف ابنه:

-الناس كلها متضايقة ومتألمة من هذا الوضع ولست تعيش لوحدك، لذا اصبر وكن حكيماً وصبوراً.

-سأبذل جهدي لأجل ذلك.

*****